

المنهج اللساني والنقدي عند تمام حسان - دراسة تحليلية -

The Linguistic and Critical Approach of Tammam Hassan - Analytical Study -

د. مبروك بركات

مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية - وحدة ورقة - الجزائر

yasirbm2013@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/09/12

تاريخ القبول: 2023/03/03

تاريخ الاستلام: 2022/12/15

ملخص: يتناول هذه البحث الجهد اللساني عند تمام حسان مركزا على المنهج اللساني الأساس الذي استند إليه في مؤلفاته، وموقفه من بعض المناهج الأخرى، كما يقف عند بعض أسس النقد اللساني في جهوده أيضا.

وقد تم رسم الخطة الآتية للإجابة عن الإشكاليات التي يثيرها موضوع البحث، وهي كالآتي:
مقدمة .

أولاً: المنهج اللساني عند تمام حسان.

1- مفهوم المنهج.

2- أصناف المناهج اللسانية.

3- موقف تمام حسان من المناهج اللسانية

ثانياً: النقد اللساني في جهود تمام حسان

1- النقد التطبيقي في اللسانيات العربية

2- أسس النقد اللساني عند تمام حسان.

خاتمة: تلخص أهم النتائج.

كلمات مفتاحية: منهج، لساني، نقدي، تحليلية، تمام حسان

Abstract

This research is dealing with the efforts done by Tammam Hassan in linguistics field especially the basic method adopted in his works. what does he think about other methods showing his criticism to their basics.

A plan is drawn to answer the research questions:

Introduction

Firstly: the linguistic method adopted by Tammam Hassan

1-the conception of method in linguistics
2-types of linguistic methods
3-Tamam Hassan's point of view about the linguistic methods
Secondly: the linguistic criticism of done by Tammam Hassan
1 the applied criticism in arab linguistics (general view)
The basics of applied criticism, which are drawn by Tammam Hassan
Conclusion where we find all the results
Keywords: method; Linguistic; Critical; Analytical;Tammam Hassan

المؤلف المرسل: مبروك بركات، الإيميل: yasirbm2013@mail.com

1. مقدمة:

عرف البحث اللساني اتجاهات لسانية اتبعا لتواتر مسيرة البحث اللساني عند الغرب، وما تمخض عنها من تطبيقات على الدراسات اللغوية، فانبثق عن ذلك الاتجاه اللساني الوصفي، والاتجاه التوليدي التحويلي، والاتجاه لتأصيلي (لسانيات التراث)، والاتجاه الوظيفي، بعدّها الاتجاهات اللسانية البحتة، التي كان لكل اتجاه منها رائدون ومناصرون.

وقد انبرى جيل من اللسانيين الرواد المبتعثين إلى الجامعات العربية في نقل اللسانيات الحديثة إلى الباحث والقارئ العربي، فأسهموا في تأسيس اللسانيات العربية الحديثة، ومنهم: إبراهيم أنيس وعبد الرحمن أيوب ومحمود السعران، وتمام حسان، وغيرهم.

تعد جهود تمام حسان من الجهود المتميزة تأسيسا ومصطلحا ومنهجيا، ولذا اخترنا في هذه الورقة البحثية أن نقف عند منهجه ونقده اللسانيين وصفا وتحليلا.

وتحاول هذه الدراسة أن تجيب عن عدة إشكالات منها:

ما هو المنهج الرئيس الذي استند إليه تمام حسان؟ وما موقفه من بعض المناهج اللسانية الأخرى؟ هل يعد تمام حسان ناقدا لسانيا؟ وما هي أسس نقده اللساني؟

2 . المنهج اللساني عند تمام حسان

2-1 . مفهوم المنهج:

وردت كلمة المنهج (méthode) في معاجم اللغة دالة على الطريق البين الواضح على غرار ما ذكره الفراهيدي (175 هـ) في قوله: " نهج الأمر وأنهج لغتان، أي: وضح، ومنهج الطريق وضحه، والمنهاج الطريق: الطريق الواضح"¹.

و أما في الاصطلاح فإن للمنهج مفاهيم متعددة بتعدد وجهات النظر، فقد عرفه محمد بدوي بأنه: " مجموعة القواعد التي يستعملها الباحث لتفسير ظاهرة معينة بهدف الوصول إلى الحقيقة العلمية، أو أنه الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"² وعرفه مصطفى غلفان بأنه " وجهة النظر المتبعة في بحث موضوع معين"³.

فالمنهج بصورة عامة أسلوب ورؤية يستند إليها الباحث في وصف ظاهرة أو قضية علمية وتحليلها بغية الوصول إلى نتائج وحلول.

2-2 . أصناف المنهج اللساني:

يعد المنهج اللساني الإطار النظري والمرجعي الذي ينطلق منه اللساني في عرض آرائه وتحليلاته ونقده للقضايا اللسانية، كما يمثل مستند التطبيق على لغة من اللغات أيضا. وقد تعددت وجهات نظر الباحثين في تصنيف المناهج اللسانية التي استند إليها اللسانيون العرب، ومن ذلك تصنيف غلفان للكتابات اللسانية إلى ما يأتي⁴:

الكتابة التمهيدية: ويعني بها الكتابات التي ركزت على عرض المادة اللسانية النظرية وتعريف القارئ بها.

لسانيات التراث: ومثلتها الدراسات اللسانية الحديثة التي قامت على التراث تأصيلا وردا على ناقدية أيضا.

وميز مصطفى غلفان بين ثلاث مراتب من القراءة محتواة في لسانيات التراث أو الاتجاه التأصيلي⁵:

1-القراءة الشمولية: وتتمحور هذه القراءة حول التراث اللغوي العربي في كليته وشموليته، وما يتصل به من قضايا.

2-القراءة القِطَاعِيَّة: وتتمحور بدورها حول قطاع معين من التراث اللغوي العربي، كأن يُتناول المستوى النحوي أو الصرفي.

3-قراءة النموذج الواحد: وتتناول هذه القراءة "شخصية لغوية عربية قديمة يُدرَسُ فكرها اللغوي وطريقة تصورها وكيفية تناولها لقضايا اللغة العربية في مجال من مجالات البحث اللغوي.

الكتابة الوصفية: وهي الدراسات التي اتخذت من البنيوية عند الغرب بشتى نماذجها ونظرياتها مرجعا لها.

الكتابة التوليدية: وهي الدراسات التي اتخذت من نظريات تشومسكي وتحولاتها على يده أو على يد تلاميذه وناقديه مرجعا لها.

الكتابة التداولية الوظيفية: هي الكتابات التي استندت إلى المناهج اللسانية الوظيفية في الدراسات الغربية، وشهدت تطورات عديدة على يد أحمد المتوكل بصورة خاصة وعديد الباحثين أيضا.

ويلاحظ أن غلفان قد أجمل في تصنيفه للكتابة اللسانية بصورة عامة، إذ جمع بين المناهج اللسانية البحتة، وأغراض الكتابة أيضا.

وصنف الباحث حسن خميس الملخ المناهج اللسانية البارزة في البحث اللساني العربي إلى ثلاثة اتجاهات⁶، وهي :

1 -الاتجاه الوصفي التقريري:

ويستند أصحاب هذا الاتجاه إلى أفكار المنهج البنيوي الغربي (الوصفي) ينهلون منها، ويدرسون النتاج اللغوي العربي في ضوءها، ومن أبرز الوصفيين العرب إبراهيم أنيس وعبد الرحمن أيوب وأنيس فريحة وغيرهم.

2- الاتجاه التحويلي التوليدي (التفسيري):

ويمثله الدارسون الذين انشَدُوا إلى أفكار النظرية التحويلية التوليدية التي أرسى دعائمها تشومسكي ، وعرفت طريقها إلى الثقافة اللغوية العربية في بداية السبعينيات من القرن العشرين، ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه : ميشال زكرياء ومحمد علي الخولي ومازن الوعرو عبد القادر الفاسي الفهري وغيرهم .

3- الاتجاه التأصيلي⁷:

يستعين أصحاب هذا الاتجاه "بمناهج النظر اللغوي الحديث في دراسة النحو العربي، بغية الكشف عن وجوه الاتفاق والافتراق بين نحاة العربية القدامى، وعلماء اللغة المحدثين في المنهج والتفكير، والتطبيق⁸ "سعيًا وراء تأصيل هذا التراث وفق نظريات علم اللغة تمهيدًا للكشف عن نظريته الأصيلة"⁹ .
و ينتهج أصحاب هذا الاتجاه -في نظر خميس الملح - منهجًا تقابليًا ينقسم إلى قسمين¹⁰ :

- 1- منهج تقابلي متسع : يتناول جوانب من نظرية النحو العربي، وجوانب من مناهج النظر اللغوي الحديث، ويمثله نهاد الموسى .
 - 2- منهج تقابلي ضيق : ويتناول جوانب من نظرية النحو العربي، وجوانب من منهج لغوي حديث كالمنهج التحويلي التوليدي كما في أعمال الباحثين عبد الرحمن الحاج صالح وعبد القادر المهيري .
- ويلاحظ في هذا التصنيف الضبط المصطلحي والتركيز على المناهج اللسانية البارزة التي كان لها حضور واسع في الدراسات اللسانية العربية، ويظهر أنه تصنيف غير شامل لأن الباحث ركز على المناهج التي لها علاقة بالظاهرة النحوية التي يتناولها، ولكنه تصنيف يفي بالغرض في الكشف عن المنهج اللساني الذي سلكه تمام حسان في مؤلفاته اللسانية.

2- 3 . موقف تمام حسان من المناهج اللسانية:

رصدنا من خلال بحوث تمام حسان حضور بعض المناهج اللسانية وسنيين في هذا السياق موقفه من كل منهج منها:

2 - 3-1. موقفه من المنهج الوصفي البنيوي:

صرح تمام حسان في عدة مواضع من مؤلفاته بانتهاجه المنهج الوصفي في الدراسة اللغوية، ويُتبع التصريح بالإشادة به أيضا، على غرار قوله: «ويزداد استحقاق علم اللغة الوصفي لمكانته باعتباره مجموعة مستقلة من المواد المترابطة كالأصوات والتشكيل والجراماطيقا والمعجم والدلالات»¹¹. ويقول في موضع آخر: "إن المنهج الوصفي هو جوهر الدراسات اللغوية في العصر الحاضر"¹².

وفي تقديم كتابه: «اللغة العربية معناها ومبناها» يؤكد انتهاجه للمنهج الوصفي في سياق حديثه عن الغاية التي ينشدها في كتابه، قائلا: " والغاية التي أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقى ضوءا جديدا كاشفا على التراث اللغوي العربي كله منبعثا من المنهج الوصفي في دراسة اللغة"¹³.

وأبان عن انتهاجه لهذا المنهج وهو يبين نظرة أساتذة كلية دار العلوم بالقاهرة إلى الدراسات اللسانية الحديثة ومناهجها، تلك النظرة التي اتسمت بالتشكيك في قيمة الدراسات اللغوية الحديثة ومناهجها، ولاسيما عند محاولة تطبيق هذه النماذج على اللغة الفصحى¹⁴. ويلخص هذه النظرة في قوله: " وكان هؤلاء يرون أن المنهج الوصفي إن صادف أي قدر من القبول في نفوسهم فما كان لهذا القبول أن يتعدى تطبيق هذا المنهج على اللهجات العامية، أما الفصحى فهجمات! لأن الأول ما ترك للأخر شيئا حتى إن النحو قد نضج واحترق"¹⁵.

وعلى الرغم من ذلك التوجس والمجاهمة التي لاقتها الأفكار اللغوية التي قدمها فإن عزم الأستاذ تمام لم ينثن عن الهدف الذي كان يصبو إليه، فقد بقي مصرا على هدفه، إذ سلك منهجا تدرجيا في عرض الجديد، إذ أثر الابتعاد بأفكار المنهج الوصفي عن طلبة التدرج، وأكد على حضورها في رسائل وأطاريح طلبة الدراسات العليا، وبين هذا النهج في قوله: " فلم أقبل الإشراف على طالب من هؤلاء يسعى مثلا إلى كتابة ترجمة لنحوي أو

تحقيق كتاب أو بحث لا يتناول فكرة منهجية نقدية ترمي إلى تطعيم أفكار النحاة القدماء بأفكار المنهج الوصفي الحديث¹⁶.

ويبين في مواضع أخرى شدة انشغاله وتنويعه بهذا المنهج، وحث الباحثين على ارتضاء الوصف منهجا في دراسة اللغة، لأن ذلك يمنح معالجاتهم البحثية سمة الموضوعية¹⁷.

و إذا كان تمام حسان مصنفا نفسه من أنصار البنيوية فإن ما تركه من نتاج يبين أنه قد نهل من نماذج ومشارب متعددة من النظريات الوصفية، فنجد مصطفى غلفان يذهب إلى أن تمام جمع بين التحليل التوزيعي الذي يهتم بالجانب الشكلي لمستويات التحليل اللغوي وبين تصور فيرث الوظيفي القائم على اعتبار اللغة نشاطا إنسانيا مرتبطا بالثقافة التي تندرج فيها هذه اللغة¹⁸، كما حددت حليلة عميرة النظرية التي طغت على فكره اللساني، وهي نظرية السياق التي وطد معالمها أستاذه فيرث انطلاقا من حديثه عن اجتماعية اللغة وإشادته بالمعنى، وبناء على ذلك أدرجته ضمن الباحثين المتأثرين بالمنهج الوصفي السياقي¹⁹.

ومال بوبكر زكموط إلى أن تمام حسان نهل من نماذج متعددة من الفكر البنيوي عند الغرب، إذ اتكأ على المعالجة السوسيرية في قضايا لسانية عديدة على غرار تمييزه بين ثنائية اللسان والكلام، وثنائية التزامنية والآنية أيضا، كما استفاد من المفاهيم الوصفية لمدرسة براغ في الجانب الصوتي خاصة، ولكن تأثير هذه الروافد لم يبلغ ما يبلغه تأثير نظرية أستاذه فيرث السياقية، إذ كانت بصمة هذا الأخير بارزة في معالجته للقضايا المرتبطة باجتماعية اللغة، والمعنى والسياق أيضا²⁰.

ونرى أن تمام حسان في التصنيف العام من اللسانيين الوصفيين بشتى نماذجه وتصوراته التي استفاد منها، وأما من ناحية تحديد النموذج الوصفي الذي غلب تأثيره فيه فيكون وصفا سياقيا لعدة أسباب منها:

- التصريح بتأثره بأستاذه فيرث في عدة مواضع من كتبه.
- ترجمة التأثير في مؤلفات أكبرت من مسائل اجتماعية اللغة والمعنى والسياق، وتجلت في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها خاصة.

- نلمح أن نظريته البديلة الموسومة بنظرية تضافر القرائن التي كانت أبرز نقد لنظرية العامل، وفي مشروعه النحوي قد استلهمت أسسها المعنوية من الفكر الوصفي السياقي.

فهذان الرأيان يذهبان إلى عدم التزام تمام حسان بالمبادئ الوصفية السوسيرية، ولكن لا ينبغي أن نغفل انبثاق هذه التوجهات اللسانية من أفكار دوسوسير، ودورانها في فلكها، وإن اختلفت عنها في بعض الرؤى.

نلمح في كتاب اللغة العربية معناها ومبناها مخالفة منهجية لأساس من أسس المنهج الوصفي، تمثلت في تطبيق الأستاذ تمام هذا المنهج على الدراسات اللغوية العربية التراثية، في حين أن أساس تطبيق هذا المنهج إنما هو على اللغة المنطوقة والمستعملة فعلا²¹. وإن هذه المخالفة تبين عدم التزام الأستاذ تمام بكل مبادئ هذا المنهج كما هي في مصادرها التي نهلها منها، ولا بكل آراء دوسوسير الذي فتح مجال المنهج الوصفي للباحثين المحدثين.

2 - 3 - 2. موقفه من المنهج التحويلي:

لم يطلع تمام حسان على أفكار المنهج التحويلي إلا بعد مدة من شيوعها في أوساط البحث اللساني، فقد صرح بأن اسم تشومسكي لم يطرُق سمعه إلا أثناء إقامته بالمغرب مدرسا (1973 - 1979 م)²²، ويستلزم ذلك عدم تعرفه على بدايات نماذج هذا المنهج اللساني حال إصدارها .

ويبدو أن اطلاع تمام على أفكار المنهج التحويلي قاده إلى قراءتها قراءة فاحصة، أبانت عنها بعض مقالاته التي توجهت بالنقد لهذا المنهج، ومن تلك النقود:

- إن هذا المنهج إذا عمل به فهو خاص باللغة الإنجليزية أولا وأخيرا.

- إن الإصرار على تطبيق هذا المنهج على اللغة العربية يعد عرضا من أعراض الاستلاب الفكري، ومظهرا من مظاهر عقدة التخلف²³.

لا جرم أن هناك سؤالا يطرح نفسه وهو: ألا ينطبق هذا النقد على المنهج الوصفي الذي أشاد به تمام حسان، واستند إليه في جل كتاباته؟ .

إن ملاحظة ما جاء في هذا النقد تبين أنه يصدق على المنهج الوصفي أيضا بحكم أن مصدر المنهجين واحد وهو الدراسات الغربية، وأن كلا المنهجين لم يقصدا اللغة العربية بداية بالدراسة، وبناء عليه فإننا نلمح في هذا النقد رغبة ذاتية من الأستاذ تمام حدت به إلى تسويد صورة المنهج التحويلي بغية الإعلاء من شأن المنهج الوصفي، ووسيلة تبرر لجوءه إليه في دراساته.

وعلى الرغم من أن الأستاذ بقي وفيا لأفكار المنهج الوصفي ردحا من الزمن، ومنافحا عنها فإننا نلمحه في أواخر المدة التي كان فيها بالمغرب مدرسا قد عدل من موقفه تجاه المنهج التحويلي بعد ذلك؛ ففي سنة 1978م نجده يقول: " يبدو أن النموذج التحويلي يمكن أن يطبق على اللغة العربية، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها ألسنيا من خلاله"²⁴.

ويبين موقف تمام من المنهج التحويلي بعض الملاحظات:

- إغراق الوصفيين المشاركة في الانهيار بالمنهج الذي سلكوه، وأغرقوا في تقديمه للقارئ العربي، ونقد التراث العربي، مقتفين أثر اللسانيين الغربيين في نقد تراثهم أيضا، بل دخلوا أحيانا في صراعات فكرية مع اللغويين المحافظين أيضا.

- إن الوضعية السالفة جعلت من تمام وغيره لا يواكبون ما جد من دراسات وأبحاث ناقدة للمنهج الوصفي، على الرغم من مرور مدة تفوق عشر سنوات على طرح أفكار المنهج التحويلي.

- أبان تعديل تمام حسان موقفه من هذا المنهج اتسامه بسمة الإنصاف، وإقراره الضمني بعدم كفاية النماذج الوصفية في وصف اللغة العربية ومعالجة نظامها اللساني.

2 - 3 - 3 . حضور المنهج التأصيلي في جهود تمام حسان:

على الرغم من تصريح تمام حسان بتوجهه الوصفي، وانتهاجه له في جل بحوثه، فإننا نلمح منهجا آخر ماثلا في بعض مقالاته، وهو المنهج التأصيلي، ولذا عد بعض الدارسين تمام حسان مؤصلا للتراث، ومنهم: الباحث محمد خليفة الدناع، مبررا رأيه بما يأتي:

- يبحث تمام حسان في بعض كتبه عن تلك الحلقة التي عدها بعض الباحثين مفقودة، وهي ربط اللغوي العربي -والنحوي خاصة - بالنظريات الحديثة وهذا يعد تأصيلاً.

- كان تمام حسان أشد إصراراً على تبني المتون والحواشي، ومحاولة إبرازه صدى النظريات الحديثة فيها²⁵.

وأخذ دارسون آخرون بهذا الرأي، ومنهم: محمود أحمد نحلة ومصطفى غلفان وحافظ²⁶، إذ أكدوا على انتهاج الأستاذ تمام منهج التأصيل في بعض المقامات البحثية إضافة إلى استناده إلى المنهج الوصفي.

وقد وقفنا على نوعين من التأصيل عند تمام حسان، وهما:

أ- التأصيل القطاعي:

ويتمثل في تأصيله للتراث النحوي من بين مستويات التراث اللغوي العربي الأخرى، وأجلى مثال يستجلب في هذا الصدد ما قام به في مقال له بعنوان: تعليم النحو بين النظرية والتطبيق -من عرض لبعض الاتجاهات اللسانية الحديثة، ومحاولة الكشف عن سبق النحو العربي إلى أفكار تلك الاتجاهات، ومنها:

الاتجاه السياقي الرصفي: وهو الاتجاه "الذي يرى الجملة سلسلة من المواقع المتتابعة التي يمكن لكل منها أن تحل فيه كلمة ذات شروط خاصة"²⁷. ويقرر بعد ذلك عناية النحو العربي بما دعا إليه هذا الاتجاه من قبل من خلال اهتمامه بالسياق في ضوء العلامة الإعرابية²⁸. ثم ثنى بالحديث عن الاتجاه البنيوي²⁹.

وتناول الاتجاه الذي عني بتحليل تركيب الضمائم، محاولاً البحث عن أصوله في النحو العربي³⁰، ليختم جولته التأصيلية بالوقوف عند النحو التحويلي؛ حيث قام بعرض أفكار هذا المنهج، ومثّل لها بأمثلة شاخصة في النحو العربي، ليخلص من ذلك إلى عدم بُعد النحو العربي عن تلك الأفكار "بدليل أن كل تطبيق على مذهب النحو التحويلي إنما تم في هذا العرض بالاستناد إلى القواعد النحوية العربية، بل إن علماً

شامخا من أعلام تراثنا هو عبد القاهر الجرجاني قد سبق تشومسكي إلى تحديد هذه الفروق الدقيقة بين العميق وغير العميق³¹.

فهذه النصوص دلّت بلغتها المباشرة على سعي تمام حسان إلى البحث عن أسبقية التراث النحوي العربي إلى حيازة قصب السبق لتلك الآراء اللسانية التي وردت في النظريات اللسانية الغربية من البنيوية والتحويلية على وجه الخصوص، وهذا الموقف يدل على مراجعة ذاتية منه لأرائه السابقة التي بين فيها ولاءه للمنهج الوصفي والذود عن آرائه، ووسم التراث النحوي بكل نقيصة تخالف ما يدعو إليه.

ب - تأصيل النموذج الواحد :

ورد في جهود تمام حسان هذا النوع من التأصيل الذي يقوم على مقابلات بين رؤى أحد النحاة القدامى ونظرية من النظريات اللسانية الحديثة أو أحد اللسانيين، وقد تعلق الأمر على وجه الخصوص بعبد القاهر الجرجاني الذي كان له تأثير بارز في فكره النحوي. ومن دواعي هذا التأصيل تلك الإشادة بنظرية النظم، التي يرى الأستاذ تمام أنها قد سبقت النظريات اللسانية الحديثة في كثير من الأفكار المبتوثة فيها، إذ يقول: "أجدني مدفوعا إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر للنظم وما يتصل به تقف بكبرياء كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي مع الفارق الزمني الواسع"³².

ويعد مقاله الموسوم بـ: «بين عبد القاهر الجرجاني ونعام تشومسكي النظم والبنية العميقة» مثالا بارزا في تجسيد هذا النوع من التأصيل، إذ عرض فيه وجهة الجرجاني في النظم وما يتعلق به من مفاهيم، ثم أردف ذلك بعرض وجهة تشومسكي -على وجه الإجمال- في البنية السطحية والعميقة.

وقد خلص تمام إلى وجود نقاط تلاق بين رأي عبد القاهر في النظم وما يترتب عليه من بناء وترتيب وتعليق، وبين رأي تشومسكي في البنية العميقة وما يتولد عنها من بنيات سطحية³³.

ونلمح تمام حسان لا يجزم بنقل تشومسكي عن عبد القاهر الجرجاني ولكنه -استناداً إلى بعض القرائن- لا يستبعد وجود التأثير، وأن تكون فكرة النظم مصدر إحياء بفكرة البنية العميقة عند تشومسكي.

سعى من خلال هذا التأصيل إلى بيان أثر التراث اللغوي العربي في مسيرة البحث اللساني، والتأكيد على احتوائه للفتات لسانية سبق بها النظريات الحديثة.

و على الرغم من أن الأخذ بالتأصيل من دلائل الإنصاف عنده، فإننا نرى أن هذا المسلك في التأصيل والانتصار للسانيات التراث بهذه الصورة المباشرة يحمل مغالطة تاريخية ومعرفية وقع فيها بعض المؤصلين ورواد البنيوية العربية أيضاً، وتتمثل في وضع التراث النحوي ونماذج النظريات اللسانية الحديثة في سياق واحد من حيث التاريخ والمرجعيات واللغة الوّاصفة والموصوفة أيضاً، مع أن الواقع يدل على الاختلافات بينهما، وليس من الموضوعية أن يُنقد نتاج لساني ما باجتهائه من سياقه، كما أن ادعاء أسبقيته في معالجة بعض القضايا دون الاستناد إلى حفريات تاريخية تثبت التأثير والتأثر مخالفة للواقع لا تضيف للسابق إضافة حقيقية، وهذا لا ينفي وجود تراكمية في العلوم .

3 . النقد اللساني في جهود تمام حسان:

3 - 1 . لمحة عن المرحلة التطبيقية للنقد اللساني:

بدأ النقد اللساني³⁴ الحديث تطبيقياً على غرار كثير من العلوم قبل أن تستقر أسسه ومجالاته تنظيرياً، ونرى أن هذه المرحلة التطبيقية بدأت مع نشر رواد البنيوية العربية لدراساتهم في المنتصف الثاني من القرن العشرين، على غرار دراسات إبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب وتمام حسان وكمال بشر وغيرهم، الذين نهلوا الأفكار اللسانية الحديثة من منابعها الغربية وحاولوا تطبيق مخرجاتها على التراث اللساني عامة، والتراث النحوي خاصة.

وبدا تمام حسان من خلال تلك المعالجة ناقدا لسانيا تطبيقيا بجهد متميز اتسم بالشمولية والتدقيق وعرض البدائل مقارنة بغيره من اللسانيين، مع إقرارنا بأن هذا الجهد النقدي قد وقع في هنات ومغالطة في بعض القضايا.

3 - 2 . بعض أسس النقد اللساني عند تمام حسان:

3 - 2 - 1 . تحديد المرجعية النقدية:

ليس خافيا أن تمام حسان قد جعل أفكار المنهج البنيوي المرجعية الأساسية التي استند إليها في نقد الفكر اللغوي عند العرب، ونجد ذكر ذلك صريحا متواترا في كتابيه (مناهج البحث في اللغة واللغة العربية معناها ومبناها)، وقد أوردنا في بيان موقفه من المنهج المذكور بعض النصوص التي تفي بالغرض.

ولكن المرجعية البنيوية على الرغم من نيلها الحظوة في الذكر والتنويه عنده غير أنها لم تكن هي وحدها التي أثرت جهده النقدي، فالأستاذ تمام على رغم من انهياره بالجديد بقي مشدودا إلى أطروحات التراث، وجهود بعض لغوييه التي أثرت فيه، وفي البدائل التي عرضها أيضا، ومن دلائل هذا الموقف قوله في كتابه لأصول: " الفكر النحوي كان إحدى دعامتين قام عليهما كتابي الذي ظهر في 1973 م " ³⁵ .

وبناء عليه فإن التراث يعد من المصادر المرجعية التي استند إليها تمام حسان في نقده، وفي السياق نقف على مخالفة منهجية وقع فيها جل الوصفين، وتتمثل في توجيه نقودهم إلى التراث اللغوي العربي، والأصل أن اللغة الحية المنطوقة هي المجال الذي ينبغي أن يطبق فيه الوصفي الإجراءات ويعمل الأدوات ، وهذه المفارقة لم تكن غائبة عن أذهانهم، فتمام حسان في مرحلتي الماجستير والدكتوراه تناول لهجتي الكرنك وعدن بالدراسة³⁶، ولكنهم بعد الابتعاث وخوضهم غمار التدريس والتأليف صوبوا لحظ أنظارهم إلى اللغة الواصفة التراثية التي وصف بها النحاة لغة عصرهم واستنبطوا منها القواعد والأصول والفروع .

و من روافد المرجعية النقدية عند تمام حسان الإستمولوجيا (epistemology) التي تهتم بالبحث في مصادر المعرفة وأدواتها، وطريقة اكتسابنا لها ³⁷ ، والاعتماد على

هذه النظرية في النقد يعد دليلا على إرادة الناقد جعل نقده أكثر ضبطا ودقة في اختيار المنقود واللغة والأحكام أيضا .

وإذا كانت هذه النظرية حاضرة في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها وفي الخلاصة النحوية تطبيقا، فإنه يصرح بالاستناد إليها في كتابه الأصول، انطلاقا من العنوان الفرعي للكتاب (دراسة إستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحوي)، كما تجلى حضورها في مقدمة الصناعات والمعارف من هذا الكتاب التي تعرض فيها إلى التفريق بين الصناعات والمعارف وخصائص العلم المضبوط من غيره أيضا ليستلهم ذلك كله في مشروعه النقدي للنحو وفقه اللغة والبلاغة.

3 - 2 - 2 . الشمولية:

من خصائص المشروع النقدي اللساني عند تمام حسان الشمولية، إذ تمكن من توجيه التحليل والتقويم إلى المستويات اللغوية المختلفة، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية أيضا، والوقوف عند كل فرع منها يحتاج إلى بحث مستفيض لا تتحمله هذه العجالة، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة فحسب.

ففي المستوى الصوتي للأستاذ تمام نظرات ونقود وبدائل، ومن ذلك تفريقه بين مصطلحي (الحرف والصوت)، فالأصوات -في نظره- هي ما ينطقه المتكلم بلسانه أثناء الكلام، وأما الحروف فهي أقسام يشتمل كل منها على عدد من الأصوات³⁸.

وبالإضافة إلى بصمته في مجال المصطلح الصوتي وإيراد بدائل للمصطلح الغربي فإنه تناول بعض الظواهر الصوتية على غرار الموقعية، التي ترتبط بسلوك الأصوات في المواقع التي تشغلها مقترنة بالسياق، سواء أكان الموقع في بداية الكلمة أم وسطها أم نهايتها، كموقعية الابتداء، والوسط والشيوع³⁹.

لتمام حسان نقود لبعض المفاهيم والتقسيمات الصرفية أيضا على غرار قضية أقسام الكلم العربي التي يقسمها النحاة إلى ثلاثة: الاسم والفعل والحرف، ولكنه أعاد

النظر فيها فقسّمها في كتابه مناهج البحث في اللغة إلى أربعة أقسام وهي: الاسم والفعل والضمير والأداة⁴⁰، ثم أعاد النظر وقسّمها تقسيماً سباعياً في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها، وهي: الاسم والصفة والفعل والضمير والخوالف والظروف والأداة⁴¹.

وله في المستوى النحوي صولات نقدية عديدة من أبرزها ذلك التنظير والتشقيق المتميز لباب الاستصحاب الذي لا يكاد يوازيه فيه باحث من المحدثين، ونظرية تضافر القرائن أيضاً التي تعد من بين النظريات الفريدة التي تدل على حدق في فهم النحو، ومحاولة تقديم بدائل على نظرياته، على الرغم من عدم نجاتها من النقد والتمحيص، كما له اختيارات في الدلالة والمعجم.

وقد أورد عبد الرحمن عارف بعض أوليات تمام حسان، ويلاحظ أنها توزعت بين المستويات اللغوية التي ذكرناها سلفاً، وهذه الأوليات في نظره هي⁴²:

1 - استنباطه موازين التنغيم في اللغة العربية، وذلك في كتابه مناهج البحث في اللغة.

2 - ارتضى التقسيم السباعي للكلم، وبرره من حيث المعنى والمبنى.

3 - تنزيده للقرائن اللفظية والمعنوية، وعدها أساس النظام النحوي العربي.

4 - تأسيسه لفكرة تضافر القرائن مبطلاً لفكرة العامل النحوي.

5 - إبرازه لفكرة الترخص في القرائن عند أمن اللبس، وربطها بالشواهد القرآنية

والحديث النبوي الشريف والشعر والنثر.

6 - فرق تمام حسان بين الزمن الصرفي البسيط والزمن النحوي المعتمد في

السياق، كما أنشأ مفهوماً للجهة.

7 - قام بمحاولات لتشقيق المعنى، وتحليل كل شق على حدة.

3 - 2 - 3 القدح والتجريح:

كان لتمام حسان نصيب من القدح والتجريح الذي وجهه الوصفيون لعرب اللغويين القدامى، وللنحويين منهم على وجه الخصوص، إذ جعلوا من محاولة نقض نظرياتهم وآرائهم سبيلاً ومنهجاً في نشر المنهج الجديد الذي انهروا به واتبعوه.

و من النظريات التي نالت نقد الأستاذ تمام نظرية التعليل، وحملت العبارات النقدية رمي النحاة ومنهجهم واختياراتهم ومن ذلك قوله: " كان تقسيم النحاة العلل إلى موجبة ومجوزة فتحا لباب من العبارات المعيارية التي حفلت به كتب النحو والصرف والبلاغة، فهذا مرفوع وجوبا، وذاك منصوب جوزا، ويجب كذا، ويجوز في ذلك الأمران، وهلم جرا، من هذه العبارات التي جعلت كتب النحو كغيره من الدراسات اللغوية **تنتفخ بلا مبرر**"⁴³، ففي هذه العبارة ما يشير إلى أن النحاة قد خاضوا مجالات كانوا في غنى عنها، وقد تسببت في جعل المدونة النحوية كبيرة بكلام مقحم، وقد عبر عن ذلك بكلمة نلمس فيها تجريحا خفيا وهي (تنتفخ بلا مبرر).

و نقف على نماذج أخرى من هذه السمة النقدية عند تمام حسان في رفضه لنظرية العامل، كقوله: " ويرى هذا المنهج الذي بين أيدينا أنها أكبر خدعة جازت على ذكاء النحاة العرب على مر العصور "⁴⁴، فكلمة (خدعة) قزمت النحاة وجهدهم الكبير الذي تعد هذه النظرية هي أساسه، ويبدو أن انبهار الوصفين بالمنهج الوصفي وتزمتهم له جعلهم لا يجدون غضاضة في استخدام التجريح والقدح الذي يعد مخالفا للموضوعية التي ينشدون .

3 - 2 - 4 . الإشادة والإنصاف:

على الرغم من سمة التجريح التي تعد سمة لدى الوصفين فإن الإنصاف يقتضي ألا يغمط حق الباحثين في وصف نتائجهم ببيان ما له وما عليه بموضوعية، ومما وقفنا عليه في كتب تمام حسان أنه في مواضع كثيرة ينوه بعبقرية النحاة، ويقدر جهودهم ويلتمس لهم الأعذار أيضا في بعض اختياراتهم، ففي مقدمة كتابه الأصول يقول: " لم أخف إعجابي بأصالة التفكير لدى نحاتنا القدماء، ولم أحجم عن وصف بناءهم النظري الذي جردوه تجريدا من المسموع بأنه صرح شامخ وجهد عقلي من الطراز الأول "⁴⁵.

و من دلائل الإنصاف ما قرره من أن النحاة لم يوفوا الاستصحاب حقه من التفصيل والتنظير إذ اكتفوا بذكر المصطلحات والتطبيق، ولكنه ينصف بعد ذلك اختيارهم، ويلتمس لهم العذر في قوله: «ولست أتهم المؤلفين في أصول النحو بأن

تفاصيل نظرية الاستصحاب لم تكن واضحة في أذهانهم إذ لو كان الأمر كذلك لما استطاعوا أن يحسنوا التطبيق، وكل ما أوجهه إليهم أنهم تركوا الكثير من المعلومات دون إثبات، لأنهم اتكلوا على شيوعها في زمانهم، أو لأنهم لم يجدوا من الضروري إثباتها، لأن الاستصحاب كان عندهم من أضعف الأدلة"⁴⁶.

وما أوردناه نماذج من سمة الإنصاف عند تمام حسان، وآياتها كثيرة في كتبه ومقالاته، ولذا فإن الباحث أن ينبغي أن يتحرى في قراءة جهد علم من الأعلام بأن ينظر في مؤلفاته جميعها، وألا يعمم حكما من خلال ما يشاع أو من كتاب واحد فقط.

3 - 2 - 5 . عرض البدائل:

تميز جهود تمام حسان بعرضه بعض البدائل للمصطلحات والمفاهيم والقضايا التي ينقدها، وهو الأمر الذي جعل جهده يحظى بالتنويه من موافقيه ومخالفيه، ولعل من أبرز تلك البدائل نظرية تضافر القرائن التي أراد لها أن تكون نقضا لنظرية العامل وبديلا لا تصمد أمامه⁴⁷، كما يرى أنها تسهم في تيسير النحو على المتعلمين، وقد بسط أسسها في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها، واتخذ من كتابه الخلاصة النحوية تطبيقا لها.

قامت هذه النظرية على مبدأ مهم وهو تضافر القرائن مع بعضها بعض في الكشف عن المعاني، ناقدا بذلك إيلاء النحاة قرينة العلامة الإعرابية الأهمية الكبيرة وإغفال غيرها من القرائن مما جعلهم يتمحلون التعليقات والأقيسة.

وهذا البديل الذي عرضه تمام حسان كان محل اهتمام ونظر من الباحثين، فتقبلها بعضهم بقبول حسن وأيدوا صاحبها فيما يذهب إليه، ومنهم حماسة عبد اللطيف في كتابه: (العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث)، وسقّه بعض الباحثين ما جاءت به هذه المحاولة، ورأوا أنها لا يمكن أن تقارن بنظرية العامل فضلا عن أن تصمد في وجهها، ومنهم فخر الدين قباوة في كتابه (التحليل النحوي أصوله وأدلتها).

وما نخلص إليه أن تمام بعرضه لهذا البديل خرج من ربة النقد المجرد الذي يهدم ولا يقدم بديلا للبناء على غرار نقد كثير من اللسانيين الرواد، ونرى أنه قد بذل جهدا لا يستهان به في بناء نظريته، ولكنها لا يمكن أن تكون من النحو التعليمي التيسيري للنحو، وإنما تصنف في الدراسات النقدية للنحو العربي.

4 . خاتمة:

بعد هذه الجولة المقتضبة في المنهج اللساني والنقدي عند تمام حسان نخلص إلى ما يأتي:

- لقد انتهج تمام في دراساته اللسانية المنهج البنيوي الوصفي مقدا إياه للقارئ العربي ومتخذا إياه منهجا يهتدي بهداه في عرض القضايا الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية أيضا.

- نهل اللساني من نماذج متعددة من المنهج الوصفي على غرار النموذج السوسيري والتوزيعي ونموذج حلقة براغ في المجال الصوتي خاصة، ولكن تأثير الرؤية السياقية لأستاذه فيرث كان له الفاعلية الكبرى على مشروعه اللساني.

- تأخر اطلاع تمام حسان على المنهج التحويلي، وقد بدا ناقدا له وكاشفا عن مثالبه في البداية، ولكنه بعد ذلك ذهب إلى أنه لا غضاضة من الاستعانة به في دراسة اللغة العربية.

- سلك اللساني مسلك التأصيل للنظريات الحديثة في التراث اللغوي إقرار منه بأسبعية التراث، وعبقرية اللغويين العرب، وقد كشفنا عن بعض الهنات التي في هذا المسار.

- إن التعدد المنهجي عند تمام حسان له أسباب عديدة ومنها الإقرار الضمني بعدم كفاية النموذج البنيوي في دراسة اللغة العربية، وعدم قدرته على تحليل اللغة الواصفة التراثية تحليلا شاملا.

- يبدو أن تمام حسان بدأ لسانيا وصفيا منبرا وملتتما بالمنهج البنيوي في كتابه مناهج لبحث في اللغة، ولكننا نلمحه في التطبيق في كتابه اللغة العربية معناها ومبناها أراد أن يكون متوازنا بين المنهج الحديث والتراث، ولكنه كثيرا ما كانت الهيمنة التراثية تطغى عليه، فترى اللغة الناقدة الداخلية المسلوقة من التأثيري اللساني الحديث تطغى عليه، ولذا ذهب عز الدين المجدوب إلى أن تأثير مصطفى إبراهيم ومن سلك مسلكه من أصحاب محاولة نقد النحو وتيسيره أبلغ تأثيرا فيه.

- يَعدُّ البحث تمام حسان من رواد النقد اللساني التطبيقي الذي يعد من المحاولات التأسيسية لهذا النقد، كما يعد من النقاد المتميزين من حيث التحليل المصطلحي، وشمولية تناول، ومنهج النقد، وتنوع الدراسات أيضا.
- للمشروع النقدي اللساني عدة أسس منها: وضوح المرجعية النقدية، وشمولية تناول، والوقوع في القدر والتجريح، وعدم التخلي عن الإشادة والإنصاف، بالإضافة إلى عرض البدائل أيضا.
- يحتاج الجهد النقدي عند تمام حسان إلى دراسة مستفيضة تقف عند كتبه باستفاضة وتحليل شامل دقيق يكشف حسناته وهناته بموضوعية.

5. قائمة الإحالات:

- ¹ الفراهيدي، الخليل، العين، تحقيق مهدي المخزومي - إبراهيم السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ج 3، بغداد، العراق، ص 392. مادة (نهج).
- ² بدوي، عبد الرحمن، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، ط 3، (الكويت، 1977)، ص 03.
- ³ غلفان، مصطفى، اللسانيات العربية الحديثة، دراسة في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني عين الشق، المغرب، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 4، 1991، ص 90.
- ⁴ ينظر: المرجع نفسه.
- ⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص 136 - 137.
- ⁶ ينظر: الملح، حسن خميس، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، دار الشروق، ط 1، (الأردن، 2000)، ص 224.
- ⁷ يطلق الباحث مصطفى غلفان على هذا الاتجاه تسمية - لسانيات التراث - . ينظر: اللسانيات العربية الحديثة، ص 135 - 141.
- ⁸ نظرية التعليل في النحو العربي، ص 224.
- ⁹ حلبي، خليل، العربية وعلم اللغة البنوي، دار المعرفة الجامعية، دط، (مصر، 1996)، ص 192.
- ¹⁰ ينظر: نظرية التعليل في النحو العربي، ص 241 - 242.
- ¹¹ تمام، حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، د ط، (المغرب، 1986)، ص 36 - 37.
- ¹² تمام، حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، ط 4، (مصر، 2000)، ص 13.
- ¹³ تمام، حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط 5، (القااهرة، 2006)، ص 10.
- ¹⁴ ينظر: المرجع نفسه، ص 07.
- ¹⁵ المرجع نفسه، ص ن.

- 16 المرجع نفسه ، 07 .
- 17 ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص 44 .
- 18 ينظر: اللسانيات العربية الحديثة ، ص 181 .
- 19 عمارة ، حليلة ، الاتجاهات النحوية لدى القدماء – دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة ، دار وائل ، ط 1 ، (الأردن ، 2006) ، ص 44 – 45 .
- 20 ينظر: زكموط ، بوبكر ، الجهود اللسانية الحديثة في التأسيس للسانيات العربية ، رسالة دكتوراه، إشراف: بوبكر حسيني ، جامعة ورقلة ، 2020 – 2021 ، ص 208 – 210 .
- 21 ينظر: العربية وعلم اللغة البنوي ، ص 220 .
- 22 ينظر: تمام ، حسان ، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب ج 1 ، ط 1 ، (مصر ، 2006) ، ص 79 .
- 23 ينظر: المرجع نفسه ، ص 231 – 232 .
- 24 إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا ، تمام حسان ، ندوة أشغال اللسانيات ، الجامعة التونسية ، تونس ، 1980 ، ص 184 . نقلا عن : نظرية التعليل في النحو العربي ، ص 227 .
- 25 ينظر: العارف ، عبد الرحمن ، تمام حسان رائدا لغويا ، عالم الكتب ، ط 1 ، (مصر ، 2002) ، ص 328 .
- 26 ينظر: نحلة ، محمود أحمد ، مدخل إلى دراسة الجملة العربية ، دار النهضة العربية، دط ، (لبنان ، 1988) ، ص 74 . اللسانيات العربية الحديثة ، ص 94 .
- 27 مقالات في اللغة والأدب ، ج 1 ، ص 63
- 28 ينظر: المرجع نفسه ، ص ن .
- 29 ينظر: المرجع نفسه ، ص 64 .
- 30 ينظر: المرجع نفسه ، ص 65 .
- 31 المصدر نفسه ، ص 77 – 78 .
- 32 اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 18 .
- 33 ينظر: مقالات في اللغة والأدب ، ج 2 ، ص 343 .
- 34 هو : " أداة تقويمية تقييمية منطلقها محددات نظرية ومنهجية عامة في إطار النظرية اللسانية العامة. وهدفها فحص المعرفة اللسانية الخاصة بنموذج لساني ما، أو نماذج عدة، أو التطبيقات المقترنة بهذه النماذج، من خلال النظر إلى أسسها ومرجعياتها، والقيمة الموضوعية لنتائجها" . الجهود اللسانية الحديثة في التأسيس للسانيات العربية ، ص 107 .
- 35 تمام ، حسان ، الأصول ، دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو – فقه اللغة – البلاغة ، عالم الكتب ، دط ، (القاهرة ، د ت) ، ص 12 .
- 36 ينظر: آل صونيت ، مؤيد ، هادي - خليل ، خالد ، تمام حسان في معيار النقد اللساني ، مجلة الأستاذ ، العراق ، ع 203 ، 2012 ، ص 248 .

³⁷ الترتوري ، محمد ، نظرية المعرفة والواقع التربوي العربي المعاصر ، الأهلية للنشر والتوزيع ، (عمان ، 2010)، ص 11 .

³⁸ ينظر : اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص 119

³⁹ ينظر : مناهج البحث في اللغة ، ص 147 - 156 .

⁴⁰ ينظر : المرجع نفسه، ص 195 - 209 .

⁴¹ ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 90 - 132 .

⁴² ينظر : تمام حسان رائدا لغويا ، ص 30 - 45 .

⁴³ اللغة بين المعيارية والوصفية ، ص 54 .

⁴⁴ اجتهادات لغوية ، ص 98 .

⁴⁵ الأصول ، ص 09 .

⁴⁶ المرجع نفسه ، ص 107 .

⁴⁷ ينظر : المرجع نفسه ، ص 98 .